منهج طه حسين المادي التشكيكي في تفسير التاريخ الإسلامي

الدكتورأبوبكر: الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب لاهور

Abstract:
Historical materialism is the extension of the principles of dialectical materialism to the study of social life, an application of the principles of dialectical materialism to the phenomena of the life of society, to the study of society and that of its history. Describing their dialectical method, Marx and Engels usually refer to Hegel as the philosopher who formulated the main features of dialectics. This concept of historical materialism has not only been used by the Western historians, we find examples of scholars like Taha Husain, Abdur Rahman Sharqawi, Ahmad Abbas al-Salih and Ghulam Ahmad Pervaiz in the Muslim world, who have applied this theory to the history of Islam as well. Dialectical interpretation of Islamic history by Taha Husain has been analyzed with examples in this article. His fallacies while applying this Marxist theory to the history of Islam have also been pointed out in this paper. In the end, some authentic approaches towards the interpretation of Islamic history and its methodologies have been elaborated and some suggestions in this regard have also been given.

قبل البحث حول منهج طه حسين المادي التشكيكي في التاريخ الإسلامي، لا بد لنا من معرفة لمحة سريعة عن المادية الديالكتيكية و منهج الشك الديكارتي في ضوء خلفية النظريات الفلسفية المعاصرة.

المادية الديالكتيكية:

المادية الجدلية مقوم أساسي من مقومات الفلسفة الماركسية، تعتمد على قوانين الدياليكتيك بناها كارل ماركس(Karl Marx: 1818 -1883م) اعتماداً على جدلية فلسفة هيجل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel: 1770-1831م) ومادية فلسفة فيورباخ(Ludwig Andreas von Feuerbach: 1804-1872م)[1]. و المادية الجدلية تقرر أن الطبيعة ليست ترا كماً عرضياً للأشياء أو حوادث منفصلة عن بعضها البعض، بل الطبيعة كل واحد متماسك ترتبط فيه الحوادث والأشياء ارتباطاً متبادلاً عضوياً... وليست الطبيعة في حالة سكون و ركود، بل حالة حركة وتغير وتجدد، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور، وشيء ينحل ويضمحل، لهذا يتحتم أن تنظر إلى الحوادث من حيث حركتها وتغيرها وتطورها وظهورها واختفائها. وتراكم التغيرات الكمية يؤدي إلى تغيرات كيفية، وهذه تكون سريعة

فجائية، وهي حتمية نتيجة لما سبقها من تراكم التغيرات الكمية. والتطور ليس حركة دائرية أوتكراراً بسيطاً للطريق ذاته، بل هو حركة صاعدة وانتقال، من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة، وتطور ينتقل من البسيط إلى المركب. ونطقة الابتداء في الديالكتيك "أن الطبيعة والحوادث تحوي متناقضات داخلية لأن لها جميعاً جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً، ماضياً وحاضراً، فيها جميعاً عناصر تضمحل وعناصر تتطور[2].

وإن الفلسفة الجدلية تعتبر أن الفكر هو نتاج المادة وأن المادة ليست نتاج الفكر، ففكر الإنسان نتاج مادي من عقله و ليس الإنسان من نتاج الفكر، وهو ما ينفيه الفلاسفة المثاليون. فالماديون يعتقدون بأولوية المادة، أما المثاليون فيعتقدون بأولوية الفكر أو الروح. الماديون يعتمدون على الأبحاث العلمية التي تنفي زوال المادة، أما المثاليون فمنهم من يقول أن المادة ليست موجودة بل هي انعكاس لوعي الإنسان وبالتالي غير موجودة. فالماديون يقولون إن المادة موجودة بشكل مستقل عن وعي الإنسان ويعرفون المادة بكل ما تتحسسه حواس الإنسان الخمسة[3]. ويقول كارل ماركس: "في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس، نراهم يقيمون علاقات محددة لا غنى عنها وهي مستقلة عن إرادتهم، وعلاقات الإنتاج هنا تطابق مرحلة محددة من تطور قواهم المادية في الانتاج، والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتي تطابقها أشكال محددة من الشعور الاجتماعي. فأسلوب الانتاج يعين الصفة العامة للعلميات الاجتماعية السياسية والروحية في الحياة[4].

ويقول فريدريك انجلز F.Engles (1850: 1895م) "إن النظرية المادية تبدأ من هذا المبدأ: وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو أساس كل نظام اجتماعي. وفي كل مجتمع ظهر في التاريخ نجد أن توزيع المنتجات وما يلازمه من تقسيم المجتمع إلى طبقات يعينه الإنتاج وطريقته وكيفية تبادله. فحسب هذه النظرية نرى أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات الاجتماعية والثورات السياسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو بحثهم عن الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل و إذن فعلينا إلا نبحث عن هذه الأسباب في الفلسفة وإنما في اقتصاديات العصر الذي نعينه[5].

ونحن نعتبر الأحوال الاقتصادية العامل الذي يعين في النهاية التطور التاريخي، ولكن هناك نقطتان يجب عدم إغفال شأنهما: أولهما أن التطور السياسي والقضائي والفلسفي والديني والأدبي يرتكز على التطور الاقتصادي، ولكن هذه جميعاً يؤثر الواحد منها في الآخر وكذلك تؤثر في الأساس الاقتصادي، وإذن ليس المركز الاقتصادي هو السبب الوحيد الإيجابي الفعال بينما ما عداه ذو أثر سلبي ولكن هناك تفاعلاً مشتركاً على أساس الضرورة الاقتصادية[6].

منهج الشك:

ينتمي منهج الشك إلى الفيلسوف الفيزيائي الفرنسي الشهير رينيه ديكارت(René Descartes:1596-1650م) صاحب المقولة المعروفة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود"[7]. والشك هو خطوة التأمل الفلسفي الأولى و الأساسية عند ديكارت، وهو السبيل الأمثل للوصول إلى اليقين، إذ يقول: "الشك خطوة ضرورية لا بد من اتخاذها فخبرتي بالخطأ وتعرضي له منذ عهد بعيد واحتمال تجدده بفعل تلك الأحكام التي خضعت لها ولم أتبين صحتها، سواء كانت أحكاماً فرضها الغير، من معلمين، أو مرشدين، أو من وكّل إليهم أمري، أم أحكاماً فرضها عليّ الحس أو الخيال-وتعرضها للخطأ معروف- إن كل هذا يدعوني إلى الشك"[8].

فهو يشك في كل شيء، وبعد البحث يوصله هذا الشك إلى النفي أو إلى الإثبات فالشك هو الأصل عنده ولعل هذا المنهج يصلح في البحث في الأمور العلمية البحتة، ويمكن الاستفادة من هذا المنهج في بحوثنا العلمية، لكننا لا نستطيع الاعتماد عليه وحده في البحوث المتعلقة بالشريعة، والأحكام، والعقائد، لأن الإيمان بالغيب، هو ركن أساسي من أركان الإيمان، بل إن أركان الإيمان كلها قائمة على الإيمان بالغيب، ومستندها: الأدلة النقلية، لا العقلية وإذا كان العلم لا يتقدم إلا باتباع مناهج البحث العلمي[9]، وكلما كانت هذه المناهج أكثر دقة وانضباطاً، كانت النتائج المترتبة عليها كذلك**المادية التاريخية:**

إن أسلوب إنتاج الحاجات المادية كالغذاء والمساكن وأدوات الانتاج هي القوة الأساسية التي تحدد شكل المجتمع وتقرر تطور المجتمع من نظام إلى آخر. وظواهر المجتمع والتاريخ شبيهة بالظواهر النووية الذرية ذات التداخل الموجي، وتلعب المصادفات والاحتمالات دوراً كبيراً في التاريخ. ويرد انجلز على خصوم الحتمية التاريخية قائلاً: "انكل ما ينقص هؤلاء السادة هو الجدل، فهم لا يرون دائماً إلا

العلة في مقابل المعلول، أما أن يسير المجرى العريض للأشياء على صورة فعل ورد فعل بين قوى شديدة التفاوت فهذا ما لا تراه عيونهم"[10]. ويقول: "هناك تعامل بين كل هذه العوامل – السياسية والدستورية والقانونية والفكرية-. وفي نهاية الأمر تفرض الحركة الاقتصادية نفسها بشكل ضروري وسط حشد لا نهاية له من المصادفات التي هي أشياء وأحداث تسلسل ارتباطها الداخلي تسلسلاً بعيداً أو مستحيل الأثبات بحيث يمكن تجاهله أو اعتباره كأن لم يكن"[11]. إذن تجعل "أسلوب إنتاج الحاجات المادية" أساساً للتطور، وتجعل "صراع الطبقات" سبيل هذا التطور... وهي في هذا تختلف عن مجرد الإفادة من العامل الاقتصادي في تفسير أحداث التاريخ.

إن الباحثين المبتعثين من العالم الإسلامي الذين عادوا من الغرب إلى بلادهم لعبوا دوراً هاما في تجديد الفكر والنهضة العلمية والأدبية وتشكيل الاتجاهات العقلية الحديثة و اختاروا أسلوب الفلاسفة المحدثين في بحوثهم العلمية والأدبية.و أبرز هؤلاء الباحثين المحدثين هو الدكتور طه حسين(1889-1973م)- الأديب الناقد المفكر مصري وعميد الأدب العربي الحديث- الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في العصر الحديث.

قد سلك طه حسين على مسلك هؤلاء الفلاسفة المحدثين في تفسير أحداث التاريخ الإسلامي و دراسة الأدب العربي ولاسيما الشعر العربي، ويقول عن منهجه: " أريد أن أقول إني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء"[12]. ولا مراء فيه أن طه حسين قلَد ديكارت في أسلوبه العلمي أو الفلسفي و في هجومه على كل ما هو راسخ في ضمير الإنسان من مقدسات كالدين و شعائر الإسلام والقومية، ويقولُ : "يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وننسى ديننا وكل ما يتصل به، يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا لمناهج البحث"[13].

ويعتقد طه حسين أن القرآن يمثل العصر الجاهلي جنباً إلى جنب مع التاريخ والأساطير فيقول : " إن القرآن يمثل العصر الجاهلي ، ويشخصه ، وإنه أصدق مرآة للحياة الجاهلية " [14]. ، ويقول: " إن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يضِع

، وإننا نستطيع أن نتصوره واضحاً قوياً بشرط ألا نعتمد على الشعر ، بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى"[15].

ففي كتابه (في الشعر الجاهلي) لقد أنكر طه حسين هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فيقول : "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة"[16].

وقد اعتبر طه حسين هجرة إبراهيم وإسماعيل إلى الجزيرة العربية حيلة اختلقتها قريش لأسباب سياسية واقتصادية وصدقها القرآن ليحتال على اليهود ويتألف قلوبهم لينسب العرب إلى أصل ماجد وليثبت صلته بالتوراة ، ويذكر أسطورة مشابهة قبلتها روما في ظروف مماثلة . فيقول : " ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة يريد . قصة الهجرة . نوعاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن من جهة أخرى"[17]. ويقول: " وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لتقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إبراهيم وإسماعيل ، كما قبلت روما ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعتها لها اليونان ، تثبت أن روما متصلة بأنبياس بن بريام صاحب طروادة[18].

وقد اتهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه قد يكون أخذ عن أمية بن أبي الصلت كثيراً من القصص القرآني ، فيقول : " من الذي يستطيع أن يفكر أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآني كان معروفاً بعضُه عند اليهود ، وبعضه عند النصارى ، وبعضه عند العرب أنفسهم . وكان من اليسير أن يعرفه غير النبي ، صلى الله عليه وسلم . ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم وأمية بن أبي الصلت متعاصرين ، فلمَ لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أخذ من أمية، ولا يكون أمية هو الذي أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم؟[19]. و في مثل هذا الاتهام الجريء تشكيك واضح بنبوة محمد وبرسالة الوحي . فكأن طه حسين يريد أن يقول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو واضع القرآن الكريم. ويدحض هذه الشبهة أنور الجندي ويقول: ومعنى هذا عند طه حسين أن الكتب الدينية كتب بشرية فهي معرضة للنقد، وهو حين يقبل هذا الرأى الذي يقول به الغريبون في التوراة، والإنجيل ليطبقه على القرآن الكريم يغفل عن الفوارق العميقة بين كتب تأكد

أصحابها من علماء اللاهوت إلى أنها من كتابات الأحبار والرهبان وبين القرآن الكريم الذي هو النص الموثق المنزل بالوحي الذي لم يدخل عليه أي إضافة أو حذف والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[20].

قد كتب طه حسين "على هامش السيرة" حول السيرة النبوية على نمط كتاب غربي كتبه (الفريد أورشيم) الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان "على هامش سيرة المسيح[21]. ويقول: "لقد حاولت أن أقص (بعض الأساطير) المتصلة بالفترة التي سبقت ظهور النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قصصت مولده وطفولته، ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جيل لوميتر وهو (على هامش السيرة). هذا الكتاب من عمل المخيلة...اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث و اختراع الإطار الذي يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة مع الاحتفاظ بالطابع القديم"[22].

وقد ساء طه حسين أن يكون لليونان أساطيرهم وللرومان أساطيرهم وأن الناس يقبلون برغبة ملحة على دراسة هذه الأساطير، ثم لا يجد الراغبون أساطير للعرب يتناقلها الناس، من أجل هذا ألف هذا الكتاب ليكون أسطورة عربية. وقد كتب ما كتب متأثراً بجيرد. وبلوت . ومولبير، ولما كان يقلدهم في كل شيء، فقد أقبل على السيرة النبوية يضع منها أساطير كأساطير هم. وهكذا يجعل طه حسين السيرة النبوية أسطورة بالرغم أن القرآن الكريم مصدر رئيسي من مصادر السيرة، والسيرة وصلت إلينا من أوثق المصادر العلمية وأمتنها، والمسلمون يدرسون السيرة فيأخذون منها عقيدتهم وعبادتهم وقدوتهم. لا يدرسونها للمعتة ولا للتسلية كما يفعل الملاحدة[23].

إنه قد تحدث في هامش السيرة عن قساوسة مصر والشام وحمير ونصارى اليمن، وهذا شيء خطير يناقض المنهج الصحيح. كما أنه عنى عناية كبيرة بالتاريخ اليوناني والروماني، على نحو لا يفهم منه إلا أنه خلط بين المسائل خلطاً شديداً، وأنه كان يرمي إلى خلط شديد بين تاريخ الإسلام وتاريخ آخر لا يتصل به، وإنما هو حديث عن الرهبان والأحبار، مقصود به إثارة جو من الخلط الشديد بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين هذه الجاهلية، وقد اهتم بإنصاف اليهود، وأن يقدم لهم شيئاً في قصة مخيريق، فهو يروى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم و مخيريق خير يهود[24].

وإنه لا يفرق بين أساطير الجاهلية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم حيثما يقول: "فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة، ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية، وفي أكثر البلاد الإسلامية، فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى"[25].

وينتقد الأستاذ غازي التوبة على هذا القول، فيقول: "كذب طه حسين في هذا القول على التاريخ، فلم يقصد رواة سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلّم – الجمال القصصى في حديثهم عنه، ولم يبتغوا الزينة اللفظية في تاريخهم لدقائق حياته، وإنما جاء الجمال القصصى والزينة اللفظية عرضاً في مثانى الكلام، فعلمهم في سيرة نبيهم أسمى من أن يهدفوا منه التقاصص أو التلاعب. وهم أوعى من أن يسفوا إلى هذا الدرك. إن مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام من نفسوهم ونظرتهم إليه مانعان بينهم وبين هذا اللغط"[26].

و ينظر طه حسين إلى دعوة التوحيد من الرسول صلى الله عليه وسلم ومعارضة قريش عليها بالنظر المادي الجدلي ويفسرها بالمنهج الدياليكتيكي، ويقول: "وكان أغيظ ما غاظ قريشاً من النبي ودعوته أنه كان يدعو إلى هذا العدل وإلى هذه المساوة... وقد سخطت قريش أشد السخط وأعنفه على النبي لما أظهر من ذلك، حتى لأكاد أعتقد أنه لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعي والاقتصادي، ودون أن يسوي بين الحر والعبد وبين الغني والفقير وبين القوي والضعيف ودون أن يلغي ما ألغى من الربا ودون أن يأخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء – أقول لو قد دعاهم النبي إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد، فما كانت قريش مؤمنة بأوثانها إيماناً خالصاً، ولا كانت قريش حريصة على آلهتها حرصاً صادقاً، وما كانت قريش إلا شاكة ساخرة تتخذ الأوثان وسيلة لا غاية، وسيلة إلى استهواء العرب واستغلالها، أو لإجابة من قريش من أجاب وامتنع عليه من امتنع، دون أن يلقي في ذلك مشقة أوعناء، إلا أن يكون حرص قريش على آلهتها نتيجة حرصها على مكانتها بين العرب وانتفاعها بما كان يجلب إليها من الثمرات. ومهما يكن من شيء، فقد سخطت قريش على النبي لأنه عرض لنظامها الاجتماعي، وفرض عليها نوعاً من

العدل لا يلائم منافع سادتها وكبرائها أكثر مما سخطت عليه لأنه عاب آلهتها ودعا إلى أن تلغي الواسطة بينها وبين الله"[27].

ويقول الأستاذ فتحي عثمان انتقاداً على قول طه حسين هذا: "والمجتمع العربي قبل الإسلام كانت له احتياجات مادية بغير جدال.. ولكن هل كانت وحدها هي كل احتياجات. ورسالة الإسلام قد سارعت إلى تلبية الاحتياجات المادية بغير جدال.. ولكن هل كانت هذه هي التلبية الوحيدة التي يقوم بها الإسلام[28].

ثم يقول الأستاذ فتحي عن أساس الدين وأهداف دعوة الأنبياء: ونقطة البدء وحجر الأساس عند أي دين من الأديان... (عقيدة) تمثل فلسفته في النظر إلى الكون وإلى الإنسان، وعن هذه العقيدة تأتي نتائج كبيرة كثيرة، متجددة، في شتى جوانب الحياة... تلبي احتياجات متعددة بتعدد العصور والبيئات. وقد يأتي الدين بنظم تشريعية لكنها بالنسبة إلى العقيدة تطبيق وتفصيل في حين تكون العقيدة هي الأصل الأصيل... وهي بدورها شرائع تغشى مختلف الجوانب، وتتباين من دين إلى دين وفق حاجة الزمان والمكان، وتفسح الطريق لمزيد من الاجتهاد يلبي تجدد الاحتياجات... تنبثق الصور المتعددة من شرائع المرسلين واجتهادات الفقهاء، عن عقيدة أصلية تستوعب الزمان والمكان، لأنها تقدم فلسفة كلية مجردة عن الكون والإنسان[29].

إن الإيمان بأن (لا إله إلا الله) يفرد بخصائص الاستعلاء والكبرياء التي لا تنبغى لأحد غيره، فهو الحاكم القهار وحده الذي فطر الناس على معرفته ومطاعته، يسلمون له في السراء والضراء ولا يحمدون على مكروه سواه... أما موقف البشر مع بعضهم عليهم، ويناقشونه الحساب فيحمدون له ويسخطون منه، فإذا ما تطاول أحد إلى هذا المقام الأعلى متعدياً الحدود فقد مسّ خصائص الله المقررة في منطق المؤمنين المنسكبة في وجدانهم (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ).

فإذا كانت رسالة الله إلى الناس على هذا العمق وهذا الشمول، فهي رسالة تتجد (تلبياتها) بتجدد الاحتياجات الانسانية.. ولا بأس أن تأتي (تلبيتها) في عصر رسول الإسلام بصورة من الصور، وفقاً للاحتياجات القائمة في البيئة العربية وقتذاك.

ولقد لا يستطيع الكاتب أن ينفصل من عصره وبيئته ليتحقق (الحياد) التاريخي و(الدقة) العلمية... فيقدم الصورة التاريخية وفقاً لتأثرات عقلية معاصرة،

أو إيجاد مذهب في التفسير ... وهنا قد يقدم الكاتب عرضاً شائقاً جذاباً، وقد يقدم دفاعاً متحمساً... ولكن لا ينبغي أن يجنى هذا أو ذاك على الموضوعية والمنهجية... وإلا كيف تستقيم هذه (الكتابة الفنية المتمذهبة) مع ما يعترضها من وقائع ثابتة مضادة، أو تأثرات عقلية مضادة من مذهب آخر في التفسير؟[30].

وقد كتب طه حسين مقدمة خطيرة لكتابه (الشيخان) و أعلن فيها مذهب الشك الفلسفي بوضوح. ويقول أنه يشك (أعظم الشك) فيما روي عن هذه الأحداث التي تناقلتها الكتب عن حياة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حيث يقول: "وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روي عن هذه الأحداث، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين، وعن تاريخ العصر القصير الذي وليا فيه أمور المسلمين، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامها"[31]. ثم يقول:"إن الذين رووا التاريخ الإسلامي هم المنتصرون وحدهم بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم، وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلاً، أقل ما يمكن أن يوصف به أنه لم يكن نقلاً دقيقاً، وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المنهزمين من قريش وروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة، فهم سمعوا صوتاً واحداً، هو الصوت العربي، وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعًا"[32]. ويقول: "ولست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذي كان بين أبي بكر وصاحبيه من جهة، وبين الأنصار أوسهم وخزرجهم من جهة أخرى"[33].

و قد شك طه حسين في أن يكون عمر قد راجع أبا بكر – رضي الله عنهما – معترضاً على حرب المرتدين[34]، مع أن مراجعة عمر لأبي بكر صحيحة رواها الجماعة في كتبهم كما رواها البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي[35].

وفي جميع هذه الحوادث التي ينكرها الدكتور طه حسين لا يعتمد على سند علمي صحيح، وإنما على عقله الذي وصفه في بعض المواضع بالتناقض والضعف والاضطراب. ولأن طه حسين يعلم أن التشكيك برواة التاريخ الإسلامي العدول محاولة لنسف التاريخ من أصله، لأجل هذا فهو يناصبهم العداء ويصدر أي خبر لهم بقوله(و يزعم الرواة) وكلمة يزعم تقال للخبر المشكوك فيه[36].

وقد ألف الأستاذ محمد عمر توفيق كتاباً عنوانه (الشيخان) رداً على كتاب طه حسين وقال فيه:إن طه حسين قد شكك في القدماء والروايات الإسلامية

القديمة، ولكن لم يتجاوزها إلى المستشرقين – الذين هم عنده موضع الإجلال – دون أن يكون لديه ميزان دقيق في هذه الأحكام الجائرة[37].

ويقول طه حسين في قضية اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية على أثر المستشرق إيطالي غريفيني(Eugenio Griffini 1878-1925م): " أوكد لك أيها القارئ أن حركة الفلك لن تقف حين يعلن المؤرخون أن من الجائز أن يكون العرب قد حرقوا خزانة الكتب في الإسكندرية، كما أن من الجائز ألا يكون قد حرقوا هذه الخزانة، لو أنك ذهبت تستشير العقل وفروضه في أمر هذه الكتب التي يقال أنها أحرقت في مصر وفي فارس، لما جزم العقل بأن تحريق هذه الكتب مستحيل، بل لمال إلى أن تحريق هذه الكتب ممكن، فليس من الغريب في شيء أن أمة بدوية كالأمة العربية قد اعتنقت ديناً جديداً كالدين الإسلامي، ليس من الغريب أن أمة كهذه الأمة تقوم على تحريق كتب لا تعلم ما فيها، ولكنها تعلم أنها تمثل ديناً غير الدين الذي أذعنت له وكتبت فيه، وهي أن كانت فعلت ذلك فليست آثمة إلا أمام طائفة معدودة من العلماء والمؤرخين"[38]. إن المصادر العلمية جميعا تؤكد حرق هذه المكتبة قبل أن يصل المسلمون إلى الإسكندرية، وهناك مؤرخ واحد هو القفطي[39] الذي ادعى هذه الدعوى وعنه أخذ المستشرقون و جرجي زيدان(1861-1914م) ومن العجيب أن الأجانب نفسهم هم الذين كذبوا القفطي(568-646ھ) كما أوردت ذلك دائرة المعارف البريطانية حيث تقول:" أن الدعوى ليست في الحقيقة إلا مهاترة وتلفيقاً لأن المكتبة لم تكن وقت الفتح العربي تحوي شيئا ذا قيمة بعد الحرائق التي انتابتها قبل العرب بزمن طويل"[40]. وكذلك يقول المستشرق الفرنسي الشهير غوستاف لوبون(1841-1931م) في كتابه "حضارة العرب": " وهذه القصة دُحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولاشيء أسهل من أن نُثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ولم يبقَ منها ما يُحرق[41].

وأول كتب طه حسين اختار فيه منهج الشك على طراز المستشرقين هو "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" وهي أطروحة قدمت للحصول على الدكتوراه من جامعة السربون بإشراف أستاذيه المستشرقين إميل دور كايم(1858-1917م) ولوسيان ليفي بريل(1857-1939م) (اليهوديان) و أنكر فيها على نظرية ابن خلدون

الاجتماعية ورأى أن ابن خلدون لا يستحق لقب (اجتماعي)[42]، وشكك أيضا في نشأة ابن خلدون ونسبه العربي[43]. وكذلك ارتاب طه حسين في أن يكون ابن خلدون قد درس في صباه جميع الكتب التي ذكرها، ويذهب إلى أنه ربما كان لا يعرف من بعض هذه الكتب إلا أسماءها وأنه ذكرها بقصد التمدح والتفاخر. ويقول: "يذكر ابن خلدون أن مختصر ابن الحاجب كان من بين الكتب التي درسها في تونس وبعده ضمن كتب الفقه المالكي، مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه، بل هو كتاب في أصول الفقه وهو مؤلف حجم الانتشار ولا يزال يدرس في الأزهر حتى يومنا هذا"[44]. وقال في صدد كتاب (الأغاني) الشهير: "فإنه في ترجمته يزعم أنه استظهر جزاءً منه ومن ثم فإننا نعتقد أن ابن خلدون لم يعرف منه سوى الاسم"[45].

ويقول الدكتور عبدالواحد وافي: والحقيقة إن جميع الكتب التي ذكرها ابن خلدون قد أتيح له دراستها دراسة عميقة، بدليل ما ذكره في الباب السادس في مقدمته، عن مسائل كل كتاب منها، ومناهجه وخلاصة آراء مؤلفه وتاريخ تأليفه، ومدى انتشاره على أنها ليست من الكثرة بحيث لا يتسع لها وقت طالب تفرغ للدراسة تفرغاً كاملاً زهاء خمسة عشر عاماً حتى لو كان طالباً عادياً، بله طالباً عبقرياً من طراز ابن خلدون[46].ويقول أنور الجندي: "والعجيب أن يتهم مثل ابن خلدون وقد كان إماماً في الفقه وقاضي قضاة المالكية في أرقى بلد إسلامي في هذا العهد، وهو مصر. وقد تولى تدريس الفقه المالكي في المغرب ومصر وفي الأزهر نفسه"[47]. وقد بلغ طه حسين في ذلك حداً بعيداً في انتقاص قدر ابن خلدون وقد نقل ذلك كله من كتابات دور كايم[48].

ومن أخطر القواعد التي وضعها طه حسين للنظر في الأدب والتاريخ تلك القاعدة المسمومة التي تقول: نسيان القومية والدين شرط أساسي من شروط البحث العلمي[49]. وقد رد الأستاذ محمد أحمد الغمراوي داحضاً إياها فقال: إن الإنسان يستطيع أن يراعى القدة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد، غير مجوز على قرأة قرآنه خطأ أو على توراته، بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصاً على الحق واستمساكاً به إذا وصل إليه، ولا خوف عليه مطلقاً إن يخفى بعض الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه[50].

إن المنهجية العلمية مقوّم أساسي في دراسة أحداث التاريخ وتحليلها وتفسيرها، أما المذاهب فهي تتباين وتتغير وتتطور حسب ظروف المجتمعات و بيئاتها، ولابد أن يبقى لنا مع أي مذهب روح العلم و أخلاقيات العلم و منهجية العلم . وهذه أمور التي تستنير بها العقول وتستصفي النفوس من التعسف الفكري و التعصب الذهني.فنرى أن الدكتور طه حسين يختار المذهب المادي الجدلي في سرد أحداث التاريخ الإسلامي و يجر الواقعة التاريخية بدون الثبوت والحجية لتعزيز مذهبه و تفسير بعينه.

الملاحظات والمقترحات:

والمنهجية العلمية تقتضي منا النظر إلى التاريخ الإسلامي من شتى الزوايا ولا أن نذهب في تفسيره مع مختلف مذاهب التفسير، وينبغي للدارس والباحث أن يلاحظ بعض الملاحظات والمقترحات[51] خلال دراسات التاريخ الإسلامي:

1. أن يكون تفسير التاريخ متمشياً مع الواقعة التاريخية، ومع الطابع العام للمجتمع في العصر والبيئة اللذين تدرس فيهما الواقعة ومع ظروفه ككل، وإلا يكون متعارضاً مع واقعة أو وقائع تاريخية أخرى ثابتة.
2. أن يأتي التفسير تالياً لثبوت الواقعة التاريخية وحجيتها... لا يناسب أن تجر الواقعة التاريخية بدون الثبوت والحجية لتعزيز تفسير بعينه.
3. ألا يبلغ بنا الحماس المذهبي درجة أن ننحل التفسير للثبوت التاريخي نفسه كما أن التفسير رأي في نطاق الذهن لاحدث في بجال الواقع. و إذا كان العلم في مجالات الطبيعة والحياة لا يعرف الكلمة النهائية، وهو يفرق بين الفرض والنظرية والقانون، فأولى أن يكون ذلك في مجالات الدراسات الإنسانية، وبخاصة في مجال تفسير الوقائع.
4. وخلال تحليل وقائع التاريخ الإسلامي تقتضي منا المنهجية العلمية أن نحدد "الواقع التاريخي" للبيئة العربية قبل الإسلام حتى نتعرف احتياجاته تعرفاً صحيحاً.
5. وتقتضي منا هذه أيضا أن نميز بين "الأصول الفكرية العامة" التي تمثل عقيدة الإسلام الأساسية الأصيلة، وبين "الصورة التطبيقية" التي حققت بها رسالة الإسلام الاحتياجات المباشرة في الواقع التاريخي.

6. ينبغي ألا يخلق "التفسير" الواقعة، ولكن الواقعة الصحيحة الثابتة هي التي توحي بالتفسير.
7. والتفسير بعد ذلك – مهما يكن محكماً متطابقا مع الواقعة ومع الوقائع الأخرى لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة اليقين التاريخي.
8. والواقعة الصحيحة الثابتة تستفيد بعد هذه الضمانات من كل تفسير، وحتى التفسير الخاطئ يعين على تحدد النظرة إلى الواقعة وتحدد فهمها.

الهوامش والمصادر والمراجع

1. The New Encyclopedia Britannica, Fifteenth Edition, 1998, V: 7, pp. 930-929
2. فتحي عثمان،محمد: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، الدار الكويتية، الكويت، الطبعة الأولى، 1969م، ص: 15،16
3. -Frank Thilly, A History of Philosophy, Henry Holt and Company, New York, 1936, pp.464
4. رفعت، السيد:ماركسية ماركس، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1998م، ص:15
5. فتحي عثمان،محمد: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، ص:17
6. د. راشد البراوي، د: نظمى عبدالحميد: النظام الاشتراكي، ص 103 وما بعدها
7. The quotation "I think therefore I am" in French _*je pense, donce je suis*_ appeared in his famous work Discourse on the Method, published in 1637.
8. نجيب بلدي، دكتور: ديكارت، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص:88
9. أنظر للتفصيل: البوطي،محمد سعيد رمضان: نقض أوهام المادية الجدلية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، 1405هـ-1985م، ص:224-234
10. ستالين: المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية، ترجمة: قدوي محمود حنفي، دار دمشق، دمشق، 2008م ،ص:20
11. اسماعيل المهدوي: الحتمية والعلم الحديث،مجلة الفكر المعاصر،مصر ،العدد-4، يونيو 1965م
12. لطفي جمعة، محمد:الشهاب الراصد، مطبعة المقتطف والمقطم، مصر،1344هـ، ص:21
13. طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1344هـ ، ص: 9
14. نفس الرجع، ص:16
15. نفس المرجع ، ص:8

16. نفس المرجع ، ص:26
17. نفس المرجع ، ص:27
18. نفس المرجع ، ص:28
19. نفس المرجع ، ص:85
20. أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، دار الاعتصام، مصر، 1404هـ، ص:166
21. قد ذكر عبد الله كنون في كتابه(التعاشيب) بأن طه حسين وضع هذ ا الكتاب على نمط كتاب "على هامش سيرة المسيح" لالفريد أورشيم، الأستاذ بجامعة أكسفورد. ولكن دكتور محمد برادة يرى بأنه كتبه تقليدا لكتاب "على هامش الكتب القديمة" لجيل لوميتر.
22. أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ،ص: 183،184
23. نفس المرجع ،ص:186
24. نفس المرجع ، ص:187
25. طه حسين: مقدمة "على هامش السيرة"، دار المعارف، مصر، ص:ح
26. الاستانبولي، محمود مهدي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، ص:234
27. طه حسين: الفتنة الكبرى، ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الرابعة، 1986م ص 10-11
28. فتحي عثمان،محمد: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، ص:44
29. نفس المرجع ، ص:45
30. نفس المرجع ، ص:46-47
31. طه حسين: الشيخان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الرابعة، 1986م، ص:8
32. نفس المرجع ، ص:9
33. نفس المرجع ، ص:30
34. نفس المرجع ، ص:49
35. صحيح البخاري(كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم)، رقم الحديث:6924،6925 و صحيح مسلم(كتاب الإيمان)، رقم الحديث: 32
36. أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص:193
37. نفس المرجع ، ص:195
38. نفس المرجع ،ص 209-211
39. هو المؤرِّخ والطبيب العربي جمال الدين القفطي(568 هـ - 646 هـ) وذكر وقعة إحراق مكتبة الإسكندرية على يد المسلمين في كتابه "أخبار العلماء بأخبار الحكماء"
40. The New Encyclopedia Britannica, Fifteenth Edition, 1998, V:1, p.291

41. غوستاف لوبون: حضارة العرب ،ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م، ص:225

42. طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1975م ،ص: 54 -63

43. نفس المرجع ، ص:13-14

44. نفس المرجع ، ص:15

45. نفس المرجع ، ص:15

46. وافي، عبدالواحد، الدكتور:عبقريات ابن خلدون، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ، 1984م-1404هـ، ص:33

47. أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص:260

48. أنور الجندي: طه حسين-حياته وفكره في ميزان الإسلام، دار الاعتصام، مصر،الطبعة الثانية،1397هـ-1977م، ص:173

49. طه حسين: في الشعر الجاهلي،ص: 9

50. الغمراوي، محمدأحمد: النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1929م-1347هـ ،ص:123

51. أنظر للتفصيل: = فتحي عثمان،محمد: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، ص:37، 46، 47، 320-323 = البوطي،محمد سعيد رمضان: نقض أوهام المادية الجدلية،ص:225-233